



(المديح) الإعلامي الضخم كان سبباً في رسم صورة خيالية عن حزب الله كيف ولماذا تم (التحول) إلى قوافل (الثوار)؟ (الوهابيون رجس من عمل الشيطان، سنتقم من الوهابيين، لن تمر هذه الجريمة دون عقاب كانت هذه عبارات مكتوبة ومحمولة على لافتات في تظاهرة أخرجها (حزب الله) في الجنوب اللبناني عقب اتفاق الطائف الذي كان من أسباب وقف الحرب الأهلية التي كانت تدور في لبنان.

في المظاهرات تخرج الكلمات دائمًا من القلب، منطوقة أو مكتوبة.

على جانب آخر كانت هناك كلمات أخرى خرجت من القلب كذلك ترسم صورة أخرى مغايرة.

فيقول أخو العشيرة عن الحزب: إنهم صفة الصفوة، وطليعة الأمة، ومرشدوها، وباعثو دينها وحضارتها ومجدها، وعلموها، ورساليوها، وأنبياؤها)[1] إن المقاومة الإسلامية في لبنان تمثل لنا ضوءاً باهراً في الأفق المعمم، وصوتاً جسرياً وسط معزوفة الانكسار، وقامة سامقة تصادر إلى جوارها دعاة الانبطاح والهرولة، إنهم يدافعون بهذا الدور البطولي الذي يقومون به عن شرف الأمة العربية وعن الأمل في أعمق كل واحد فينا، إنهم يرفعون رؤوسنا عالياً ويرصّعون جبين أمتنا[2].

إن حزب الله يقوم بدور رائد في إيقاظ الأمة وتقديم الدليل على قدرتها لصد العدوان[3].

فالمقاومة الإسلامية لحزب الله واحدة من أبرز معالم نهضة الأمة وأكبر دليل على حيويتها[4].

لماذا حظيت المقاومة الإسلامية في لبنان بهذا القدر الهائل من التضامن الشعبي العربي والإسلامي؛ بل من كل المستضعفين في العالم؛ وهل يتحول الطرح السياسي والحضاري لتلك المقاومة إلى أيدلولوجية للمحروميين في كل مكان في العالم في مواجهة النمط الحضاري والقيمي الغربي الذي يهدد العالم بأسره؛ لماذا نجحت المقاومة اللبنانية في أن تصبح طليعة لكل قوى التحرر العربي على اختلاف مشاربها الدينية والطائفية والسياسية والطبقية؟!

وبصيغة أخرى: لماذا نجحت المقاومة اللبنانية في الخروج من مأزق الطائفية الضيق إلى رمز للتحرر لكل إنسان مسلماً كان أم مسيحياً عربياً أم عالياً، أبيض أو أسود؛ لماذا كانت المقاومة وحزب الله بالتحديد هي الجزء الحي في النسيج العربي الذي اهترأت الكثير من أجزائه وأطّره الفكرية والتنظيمية؟[5]

صورتان متناقضتان تثيران أسئلة كثيرة عن قصة الحقيقة، ولا يُخفى بعض الناس شدة الحيرة التي تنتابه مع هذه الصور المتباعدة الشديدة التناقض؛ فبين مسلمات عقيدة راسخة، وأصول مستقرة، وبين واقع ضاغط على الفكر والشعور، تضطرب

وحزب الله في لبنان جزء من قصة طويلة وصراع ممرين، والحديث عنه وعن حقيقته وأهدافه أمر ضروري في وقت بدأ فيه تحول كبير في دور الحزب، بعد أن تحقق جزء كبير من أهدافه، وكذلك في وقت بدأت فيه (عودة الروح) لمسار السلام السوري واللبناني، والذي يمثل (حزب الله) ورقة تفاوضية هامة فيه؛ بيد أن المسألة متشعبة شديدة التعقيد فرضتها عوامل شتى؛ لذا كان من المهم استعراض التفاصيل وتفاصيلها.

لبنان أي أرض أي دولة؟

لن نذهب في التاريخ بعيداً، وإنما سنذكر صورة منه، أو نتيجة لصراعه وأحواله في لبنان، فقد قامت الدولة اللبنانية على ركيزة أساسية هي (الطائفية)، وولد الاستقلال والميثاق في أحضانها، وورث الاستقلال نهجاً يجسد التفسخ الوطني في إطار علاقات سياسية تعمل على إبقاء هذا الأمر واستمراريته.

هذا النهج السياسي وقف عائقاً أمام تطوير الواقع الطائفي ومحاولة تجاوزه، وحمل الاستقلال معه كل أمراض التخلف والتعصب والتفرقة؛ لأن أبطاله لم يعملوا على استئصال الرواسب وإقامة الوطن على قاعدة الانتماء إليه؛ بل اكتفوا بوحدتهم الفوقية وتركوا التشتت الطائفي في القاعدة؛ فقام لبنان على قاعدة تعدد الطوائف المتعايشة على أرض واحدة تقسم المغانم فيما بينها.

إن الاستقلال والدستور قد قاما على ركيزتين أساسيتين هما. تجميع الطوائف وتجميع المناطق؛ وشتان ما بين التجميع والانصهار. لقد استبدلت الوحدة الوطنية كما هو الحال في الدول الأخرى بوحدة الطوائف المتعايشة، ورعت دولة الاستقلال المؤسسات الطائفية لتوسيع نشاطاتها ولزيادة من انقسام المواطنين.

في الحقل التربوي بقي لكل طائفة مؤسساتها التربوية لتلقين المواطنين ثقافات مختلفة، وعلى الصعيد التنظيمي السياسي صار لبعض الطوائف مجالس ملية تحولت إلى مؤسسات سياسية تسهم في السلطة بدرجة أو بأخرى.

وعلى الصعيد السكاني بقيت المدن الكبرى ذات طابع طائفي؛ وعلى الرغم من احتوائها على اختلاط سكاني من مختلف الطوائف إلا أنها تمنت بغالبية سكانية من طائفة معينة، أو تضمنت أحياط سكانية لكل طائفة، أو لكل مذهب هي يجمع أبناء المذهب نفسه، وهذا الأمر قد سهل فيما بعد الانقسام الجغرافي؛ حيث هجرت كل منطقة الأقليات الموجودة فيها من الطوائف الأخرى؛ مما جعل السلطة عبارة عن حكم بين مختلف الأطراف (الطوائف) لا سلطة دولة بيدها المبادرة والقرار الذي تستطيع فرضه على الجميع.

في لبنان ازدواجية سلطوية. قامت سلطة الدولة وتساكنت جنباً إلى جنب مع سلطة الطائفة، وكثيراً ما أذاعت سلطة الدولة إلى سلطة الطائفة البارعة في توظيف التمايزات الدينية لأغراض سياسية.

والطائفة هنا تلعب دور الحزب السياسي المُدافع عن مصالح الأفراد، وتحل مشكلة انتماء الفرد طالما أنه لا توجد أطر أخرى أكثر فعالية لتنظيم حياته وضمان توازنه المادي النفسي، وهكذا يندفع الفرد إلى أحياط الطائفة؛ فالتخلي عنها يبدو بأنه ضياع آلية التضامن الأسري والعائلي إذا لم يسنده ظهور مؤسسات تضامن جماعي نقابي ومدني أعلى، كما يعني العزلة للأفراد، ويعني الافتراق النفسي والاجتماعي كذلك.

لقد عجزت الدولة اللبنانية عن بناء الإطار الفكري والسياسي والإداري والاقتصادي الذي يوحد الأمة ويبني إجماعاً؛ إنها لم تمتلك رسالة اجتماعية تسمح لها بأن تكون دولة الأمة لا دولة الجماعات وبدلأ من أن ترتفع باعتبارها مؤسسة سياسية وسلطة. فوق التمايزات والتناقضات انخرطت هي نفسها بفعل طبيعة بنيتها وتركيبتها العصبية في التناقضات التي أخذت تمزقها، أو بالأحرى تبرز تمزقها الداخلي المستور بأيديولوجيا الوفاق والتعايش.

لقد اعترفت الدولة القانونية في لبنان بتنوع القوى السياسية، ومنحتها حق التنافس الحر حتى بلغ حد الفوضى المسلحة؛

فالتدريب والتسلح غير المشروع، وقيادة الجيوش غير النظامية، وتخريج دفعات من الميليشيات اللبنانية كان يتم في احتفالات علنية تنقلها الصحف اليومية تحت سمع الدولة وبصرها. إن نشوب الحرب بهذه الصراوة والشراسة، وقدرتها على الاستمرار لأعوام طويلة ما كان يمكنها لولا وجود ميليشيات قد أنشئت أصلاً لأن لها دوراً يُنتظر أن تلعبه.

وإثر الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على الفلسطينيين داخل الأراضي اللبنانية منحتم الدولة حق الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداءات الخارجية عليهم بدلًا من أن تكون هي المسؤولة عن حماية كل من يقطن داخل حدودها سواء بالطرق السلمية أو بالقوة؛ فالدولة عادة كل دولة تقدم نفسها مركز استقطابٍ وحيد لممارسة العنف القانوني في المجتمع؛ فعنف الدولة له أسبابه. أي قانونيته. لكن الدولة اللبنانية بتركيبتها الضعيفة سلطويًا قد سمح لنباتات العنف اللاشرعية أي الخارج عن إطار الدولة أن تنمو على جوانبها، ومهدت للاحتراب بين اللبنانيين عندما وقفت شاهد زور من استعداداتهم للحرب، وهي بتركيبتها الطائفية الحساسة لم تستطع التعامل مع القضية الفلسطينية كما تعاملت معها سائر الدول العربية، فمهدت بذلك لحرب الآخرين على الأرض اللبنانية.

حتى الأحزاب التي تؤكد أنها غير طائفية من حيث المبدأ والغاية، وتلك التي ترفع شعار العلمنة والديمقراطية والمساواة لا تفلت من فخ الطائفية إلا قليلاً.

والظاهرة البارزة التي نشأت في ظل الحرب هي تعدد الأحزاب والمنظمات والحركات بشكل لم يسبق له مثيل. واللافت للنظر أن إمعان الأحزاب والمنظمات في تحديد هويتها الطائفية ربما كان لاستقطاب أكبر عدد من الأتباع أو لإبراز خصوصيتها.

وفي جميع الأحوال انخرطت تلك الأحزاب في لعبة الطائفية نفسها التي استخدمها الإقطاع السياسي لإحكام سيطرته وثبتت موقعه. أما الأحزاب العلمانية فإن كلاً منها قد اتخذ صبغة القطاع الطائفي الكانتون الذي يوجد داخل حدوده.

وحددت الأحزاب والميليشيات مناطق نفوذ لها، وأخذت تثبت مواقعها داخلها؛ واعتباراً من عام 1984م أخذت الخطوط الفاصلة بين مناطق النفوذ تتضح؛ ففي بيروت وضواحيها وفي جزء من جنوب لبنان هناك سيطرة لقوات أمل الشيعية وحلفائها، وفي ضاحية بيروت الجنوبية وبعض مناطق البقاع والهرمل هناك سيطرة لقوات حزب الله الشيعية، وفي بيروت الشرقية وضواحيها وبعض مناطق الجبل هناك سيطرة القوات اللبنانية المارونية على جزء منها، وسيطرة فئة من الجيش اللبناني على الجزء الآخر في عام 1990م، وفي الشوف سيطرة لقوات الحزب التقديمي الاشتراكي الدرزي وحلفائها، وفي الشمال سيطرة لقوات المردة المارونية المعادية للقوات اللبنانية، وفي أقصى الجنوب هناك الحزام الأمني الذي صنعه إسرائيل بينها وبين جنوب لبنان، يسيطر عليه (جيش لبنان الجنوبي) المدعوم من قبل إسرائيل.

فماذا بقي للدولة وسط هذه. البانوراما السلطوية. حتى تسيطر عليه؛

من جهة أخرى، شكلت الطائفية أفق الدولة اللبنانية الذي استوحت منه تصوراتها للمجتمع والكون ونمط الوجود، للتنظيم الاجتماعي، والتوزيع البيروقراطي، كي تجند لا جيشاً عقلانياً عسكرياً واحداً وجيشاً مدنياً منظماً واحداً البيروقراطيين وموظفي الدولة بل جيشاً طائفية مرتهنة لجماعاتها المتنافعة والمتجهة عقلياً وعاطفياً نحو الذات الطائفية المنغلقة.

ثم بدأ طرح إلغاء الطائفية السياسية؛ لأنها سبب البلاء، وأنها تمنع الانصهار الوطني، وتحقيق المواطنة الحقة. والمطالبون بإلغاء الطائفية السياسية أغلبهم في موقع طائفية بعضها شديد العصبية؛ فالأنهار المطالبة بإلغاء الطائفية أحزاب طائفية بتركيبتها، وبدهي أن المطلب الصادر من موقع طائفي هو طائفي أيًّا كان التعبير اللغظي عنه، ومطلب إلغاء الطائفية يعني تحديداً: استبدال ديمقراطية عددية تعني سيطرة على الحكم والإدارة بحكم العدد أو بحكم ما يظن من غلبة عددية بالديمقراطية الإصلاحية المركبة المعقدة أساساً للعيش المشترك اللبناني.[6]

هذا الواقع المأزوم والمَرْضِي مثُلَّ مرتعًا خصباً لأحلام كل طائفة في السيطرة وفي لبنان خصوصاً لا تمثل قوة الطائفة إلا بمدتها الخارجي وتبعيتها الدينية والسياسية والمالية. وكانت الطائفة الشيعية التي يمثلها (حزب الله) سياسياً وعسكرياً موضوع حديثنا من تلك الطوائف التي أرادت أو بالأصح أريد منها أن تتحقق الحلم بتكوين دولة تقوم على تبني المذهب الجعفري الثاني عشرى منهجاً ونظاماً؛ فلبنان أريد به أن يكون. إما دولة نصرانية عربية بميول غربية وسط تجمع مسلم ضخم، وإما دولة شيعية عربية بميول فارسية وسط تجمع سني ضخم كذلك.

والدولة الأولى: النصرانية لعل لها حديثاً آخر، أما المراد الآخر فلا بد من الوقوف فيه أولاً على بعض المرتكزات؛ حتى تتضح الصورة من بداياتها وصولاً إلى منتهاها.

لبنان وإيران قصة العلاقة:

حين استولى الصفويون على حكم إيران، في مطلع القرن السادس عشر، وجعلوا من التشيع الإمامي دين الدولة والأمة، وحصنوا إيران به بإزاء الفتح العثماني (التركي السنّي) كان التشيع يندوي ويتشلاشى، إنْ في مدارس النجف أو في مدارس خراسان، فعمد الشاه إسماعيل إلى استقدام علماء من جبل عامل جنوب لبنان لتدريس الفقه الإمامي، فكان منهم: (بهاء الدين العاملى محمد بن الحسين بن عبد الصمد، 953-1031هـ) الذي أصبح شيخ الإسلام في أصفهان في عهد الشاه عباس الكبير، والمحقق الكركي علي بن الحسين ابن عبد العالى العاملى، ت940هـ - 1533 م الذي قدِّم النجف ثم رحل إلى بلاد العجم لترويج المذهب، والسلطان حينذ الشاه إسماعيل الصفوی الذي مكّنه من إقامة الدين وترويج الأحكام، وكان يُرْغَب عامة الناس في تعلم شرائع الدين ومراسيم الإسلام، ويحثّهم على ذلك بطريق الالتزام، وكان أن جعل في كل بلدة وقرية إماماً يصلي بالناس ويعلّمهم شرائع الدين، وبالغ في ترويج مذهب الإمامية؛ بحيث لقبه بعضهم بمخترع مذهب الشيعة.[7]

ومنطقة جبل عامل أو عاملة في قلب جنوب لبنان كانت أهم مرجعية شيعية في العالم بين القرنين الميلاديين الرابع عشر والسادس عشر، ومع بداية هذا التعاون مع الدولة الصفوية أُبْدِيَ الآلاف من السُّنَّة من العامة والعلماء؛ ففي تبريز العاصمة وحدها كان السُّنَّة فيها لا يقلون عن 65% من السكان، وقد قُتل منهم في يوم واحد 40 ألف سنّي!! كما أُجْبِرَ الآلُوف على التحول القسري إلى مذهب الإمامية[8] كما كانت هناك مؤامرات عديدة وتعاون مع قوى غربية على إسقاط الدولة العثمانية، وهي من الأمور غير الخافية عبر التاريخ[9].

وقد استهوت التجربة الصفوية الشيعية (المضطهدِين) في العراق وجبل عامل جنوب لبنان والبحرين، وذهب العلماء بالخصوص ليدعموا تأسيس الدولة الشيعية (الصفوية) الوليدة [10].

ونستطيع أن نتجاوز حقبة زمنية بعيدة حتى نصل إلى صورة قريبة تبيّن تلك العلاقة الحميمة والوطيدة التي يحاول نفر من الناس فصلها وتزييف الواقع ووقائعه.

فقد قيل له حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله: إن دور حزبه لن ينتهي؛ لأنَّه حزب مستورد من الخارج، (سوريا أو إيران) فقال: لكن واضحين ونحكي الحقائق: الفكر الذي ينتمي إليه (حزب الله) هو الفكر الإسلامي، وهذا الفكر لم يأت من (موسكو) أيام الاشتراكية ولا من (لندن وباريس) ولا حتى من (واشنطن) في زمن الليبرالية، هو فكر الأمة التي ينتمي إليها لبنان، إذن نحن لم نستورد فكراً، وإذا كان من يقول: إن الفكر إيراني. أقول له: إن هذه مغالطة؛ لأنَّ الفكر في إيران هو الفكر الإسلامي الذي أخذَه المسلمون إلى إيران، وحتى هذا الفكر خاص بعلماء جبل عامل. اللبنانيون هم الذين كان لهم التأثير الكبير في إيران على المستوى الحضاري والديني في القرون السابقة؛ أين هو الاستيراد؟ هذا الحزب كواهله وقياداته وشهادؤه لبنيانه[11].

وفي إحدى الاحتفالات التأبينية التي تقام في لبنان قال إمام جماعة مسجد الإمام المهدي الشيخ حسن طرادي: إن إيران ولبنان شعب واحد بلد واحد، وكما قال أحد العلماء الأعلام: إننا سندعم لبنان كما ندعم مقاطعاتنا الإيرانية سياسياً

وفي مناسبة تأبينية أخرى قال الناطق باسم حزب الله ذاك الوقت إبراهيم الأمين: نحن لا نقول: إننا جزء من إيران؛ نحن إيران في لبنان ولبنان في إيران[13].

ويقول محمد حسين فضل الله المرشد الروحي لحزب الله: إن علاقة قديمة مع قادة إيران الإسلامية بدأت قبل قيام الجمهورية الإسلامية، إنها علاقة صداقة وثقة متبادلة، ورأي ينسجم مع الفكر الإيراني ويسير في نفس سياساته[14]. ويقول حسن نصر الله: إننا نرى في إيران الدولة التي تحكم بالإسلام والدولة التي تناصر المسلمين والعرب. وعلاقتنا بالنظام علاقة تعاون، ولنا صداقات مع أركانه ونتواصل معه، كما إن المرجعية الدينية هناك تشكل الغطاء الديني والشعري لكفاحنا ونضالنا[15].

ويؤمن على كلام أمين الحزب مساعد وزير الخارجية الإيرانية للشؤون العربية والإفريقية، د. محمد صدر فيقول: إن السيد حسن نصر الله يتمتع بشعبية واسعة في إيران كما تربطنا به علاقات ممتازة[16].

وقد حذر علي خامنئي مرشد الثورة من إضعاف المقاومة الإسلامية وقال: إنه يجب التيقظ ومنع الأعداء من ذلك، إن شعلة المقاومة يجب أن لا تنطفئ؛ لأن أولئك الأبطال واجب على إيران مساعدتهم[17].

فهكذا يتبيّن الترابط المتكامل بين إيران الثورة وحزب الله وشيعة لبنان، فقد أصبحت إيران الأم الرؤوف والمحضن الدافئ والمرعى الخصيب والتموذج الذي يتطلع إليه عموم الشيعة؛ فهي القبلة الدينية والسياسية لهم.

المنتظرون إلى متى؟

ننعرض هنا لقضية مهمة حول (التبديل) الكبير الذي حدث في عقيدة ومنهج الشيعة الاثني عشرية والذي حولهم من طائفة على هامش التاريخ بفعل (نظرية الانتظار)، بعد دخول محمد بن حسن العسكري السردار وغيابه على حد قولهم إلى طائفة ثورية تريد تغيير العالم كله ومواجهة قوى الاستكبار في العالم وإنارتة بالإسلام (الصحيح)، وتطهير الأرض من رجس يهود!! وقد كان لحزب الله نصيب وافر من هذه الشعارات الرنانة والمواجهة المدعاة.

وتقوم نظرية (الانتظار والتقيّة) على تحريم الثورة والإمامية والجهاد وإقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الجمعة؛ فقد تأثر الفكر السياسي الشيعي تأثراً كبيراً بنظرية وجود الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري داخل السردار، واتسم لقرون طويلة بالسلبية المطلقة؛ وذلك لأن هذه النظرية قد أثبتت من رحم النظرية الإمامية التي تحتم وجود إمام معصوم معين من قبل الله، ولا تجيز للأمة أن تعين إماماً أو تنتخبه؛ لأنه يجب أن يكون معصوماً، وهي لا تعرف المعصوم الذي ينحصر تعينه من قبل الله؛ ولذلك اضطر الإماميون إلى افتراض الإمام الثاني عشر، بالرغم من عدم وجود أدلة علمية كافية على وجوده.

وقد كان من الطبيعي أن يترتب على ذلك القول بانتظار الإمام الغائب، تحريم العمل السياسي، أو السعي لإقامة الدولة الإسلامية في عصر الغيبة، وهذا ما حدث بالفعل؛ حيث أحجم النواب الخاصون بالإمام عن القيام بأي نشاط سياسي في فترة الغيبة الصغرى، ولم يفكروا بأية حركة ثورية، في الوقت الذي كان فيه الشيعة الزيدية والإسماعيلية يؤسسون دولاً في اليمن وشمال إفريقيا وطبرستان.

لقد كانت نظرية انتظار الإمام الغائب بمعناها السلبي المطلق تشكل الوجه الآخر للإيمان بوجود الإمام المعصوم، ولازمة من لوازمه؛ ولذلك فقد اتخد المتكلمون الذين آمنوا بهذه النظرية موقفاً سلبياً من مسألة إقامة الدولة في عصر الغيبة، وأصرروا على التمسك بموقف الانتظار حتى خروج المهدي الغائب.

وقد نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أفضل أعمال أمتي انتظار فرج الله عز وجل). يعنون به خروج الغائب المنتظر، وجعلوا الانتظار أحب الأعمال إلى الله، والمنتظرون لظهوره أفضل أهل كل زمان[18].

وبالرغم من قيام الدولة البوهية الشيعية في القرن الرابع الهجري، وسيطرتها على الدولة العباسية، فإن العلماء الإماميين طلوا متمسكي بنظرية الانتظار وتحريم العمل السياسي، وقد قال محمد بن أبي زينب النعماني (توفي سنة 340هـ) في كتابه الغيبة: (إن أمر الوصية والإمامية بعهد من الله تعالى وباختياره، لا من خلقه ولا باختيارهم؛ فمن اختار غير مختار الله وخالف أمر الله سبحانه ورد مورد الظالمين والمنافقين الحالين في ناره).

(كل رأية تُرفع قبل رأية المهدي فصاحبها طاغوت يُعبد من دون الله).

(كل بيعة قبل ظهور القائم فإنها بيعة كفر ونفاق وخدعة).

(والله لا يخرج أحدٌ منا قبل خروج القائم إلا كان مثله كمثل فرع طار من وكره قبل أن يستوي جناحاه فأخذه الصبيان فعيثوا به)[19].

وجاء في كتاب بحار الأنوار عن المفضل بن عمر ابن الصادق أنه قال: يا مفضل كل بيعة قبل ظهور القائم فبيعة كفر ونفاق وخدعة، لعن الله المبایع والمبایع له)[20].

وكما أثّرت قضية الإمامية والولاية فكذلك أثّرت نظرية (الانتظار) على موضوع حديثنا، العمل الثوري (الجهاد) فتعطل، وكان مُحرّماً.

وقد نتج عن الالتزام بنظرية الانتظار، وتفسير شرط الإمام المُجتمع عليه في وجوب الجهاد أنه الإمام المعصوم أن تَعَطَّلَ الجهاد في عصر الغيبة؛ فقد اشترط الشيخ الطوسي في كتاب المبسوط في وجوب الجهاد اشتراط ظهور الإمام العادل الذي لا يجوز لهم القتال إلا بأمره، ولا يسوغ لهم الجهاد دونه، أو حضور منْ نصبه الإمام للقيام بأمر المسلمين، وقال بعدم جواز مجاهدة العدو متى لم يكن الإمام ظاهراً، ولا منْ نصبه الإمام حاضراً، وقال: (إن الجهاد مع أئمة الجور أو من غير إمام خطأ يستحق فاعله به الإثم، وإن أصاب لم يؤجر وإن أصيّب كان مأثوماً).

واعتبر ابن إدريس: (أن الجهاد مع الأئمة الجُوّار أو من غير إمام خطأ يستحق فاعله به الإثم، إن أصاب لم يؤجر وإن أصيّب كان مأثوماً)، وقال: (إن المرابطة فيها فضل كبير إذا كان هناك إمام عادل ولا يجوز مجاهدة العدو من دون ظهور الإمام).

وصرح يحيى بن سعيد في الجامع للشرايع بحرمة الجهاد من دون إذن إمام الأصل، و(أن وجوبه مشروط بحضور الإمام داعياً إليه أو من يأمره).

وبالرغم من قيام الدولة الشيعية الصفوية تحت رعاية المحقق الكركي الشيخ علي بن الحسين، فإنه رفض تعديل الحكم في عصر الغيبة، وحصر في كتاب (جامع المقاصد في شرح القواعد) وجوب الجهاد بشرط الإمام أو نائبه، وفسّر المراد بالنائب بـ (نائبه المنصوص بخصوصه حال ظهور الإمام وتمكنه، لا مطلقاً).

وأغفل الشيخ بهاء الدين العاملي بحث الجهاد في كتابه: (جواع عباسي) وفسر سبيل الله في عصر الغيبة ببناء الجسور والمساجد والمدارس.

ولا يذكر أحدٌ من العلماء المعاصرين - كالكبايكاني والشاهدودي والخونساري والخوئي والقمي والشريعتمادي الذين يعلقون على العروة الوثقى - لا يذكرون شيئاً عن الجهاد أو تفسير كلمة سبيل الله به.

ومن هنا - وإذا استثنينا عدداً محدوداً جداً من الفقهاء الذين شكوا في تحريم الجهاد، وربطه بالإمام العادل المعصوم - يكاد يكون إجماع الفقهاء الإمامية عبر التاريخ ينعقد على تحريم الجهاد، بمعنى الدعوة للإسلام والقتال من أجل ذلك، وخاصة لدى العلماء الأوائل منهم[21]

وقد قال الخميني: (في عصر غيبةولي الأمر وسلطان العصر عجل الله فرجه الشريف يقوم نوابه وهم الفقهاء الجامعون لشرياط الفتوى والقضاء مقامه في إجراء السياسات وسائر ما للإمام عليه السلام إلا البداية بالجهاد)[22].

فهكذا كانت هذه النظرية (العقدية) والسياسية عائقاً كبيراً أمام الشيعة الإمامية في الانطلاق إلى تحقيق عقيدة الثأر الكربلائية،

والانتقام ممن قتل الحسين -رضي الله عنه-. وإن كان هذا الموقف ظاهرياً يُخفي خلفه أحالماً توسيعية فارسية[23]; فقد بدأ الانقلاب على البدعة ببدع أخرى؛ ولكنها هذه المرة تساعد على الخروج من هذه الشرنقة القاتلة التي وضعوا أنفسهم فيها بعد أن ضاقت عليهم بدعتهم وقال قائلهم: اللهم طال الانتظار وشمت بنا الفجار وصعب علينا الانتظار[24].

الأطوار المنسوبة [*]:

والمنهج الشيعي من بأطوار يختلف بعضها عن بعض بشكل كبير؛ فبعد وفاة الإمام الحادي عشر الحسن العسكري بغير ولد اضطرب الشيعة وتفرق جمعهم؛ لأنهم أصبحوا بلا إمام، ولا دين لهم بلا إمام؛ لأنه هو الحجة على أهل الأرض، وبالإمام عندهم بقاء الكون؛ إذ (لو بقيت الأرض بغير إمام لساحت) وهوأمان الناس (ولو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله) ولكن الإمام مات بلا عقب، ولم يحدث شيء من هذه الكوارث، فتحيرت فرق الشيعة واختلفت، فادعت طائفة منهم أن الحسن له ولد غائب حفاظاً على المكاسب الأدبية والمادية، وأن له نواباً هم الواسطة بينه وبين الناس، وكانوا أربعة، وكانوا يجمعون الأموال من الناس لإيصالها لهذا الغائب، وكانت لهم الطاعة، فلهم ما للإمام، ولقولهم صفة القدسية والعصمة، وهم مخولون كذلك بالتشريع، ثم كان أن توفي رابع النواب، ولم يوص بنائب خامس بعده، وأخرجوا مرسوماً موقعاً من الإمام الغائب يقول فيه. (أما الواقع الحادثة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا؛ فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله).

فانتهت بذلك ما تسمى الغيبة الصغرى وبدأ تطور جديد بتفويض أمر النيابة عن الإمام المنتظر إلى رواة حديثهم وواعضي أخبارهم بعد النواب، وقد أفاد هذا التطور الشيعة في تخفيف التنافس على منصب البابية وبدأت الغيبة الكبرى[25]. وكل هذا العنت كان لربط الناس بأحلام مستمرة عن قيام دولة شيعية، وكلما اقتربت مرحلة التخدير النفسي من النهاية، بدأ تطور آخر وأحلام أخرى حتى لا يتفلت الناس من هذه البدع وإن كان هذا قد حدث بالفعل مع نهاية كل مرحلة وبداية كل تطور جديد.

وكان نظرية (ولاية الفقيه) التي تنازل فيها الفكر الإمامي عن شرط العصمة والنص في الإمام، وسمح بالنيابة الواقعية للفقهاء عن الإمام، والتي تسمح لهم بممارسة القضاء وتوجب التقاضي إليهم، وهو ما كان محظياً عندهم من قبل، وفتح باب الاجتهاد الذي كان محظياً كذلك، والقول بالقياس، وانسحبت أشكال التطور أو (التبديل) على كافة محظيات (نظرية الانتظار) كالعمل المسلح (الثورة) والإمامية والجهاد والحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلاة الجمعة؛ فقد طالت غيبة الإمام وتواترت القرون دون أن يظهر، والشيعة محرومون من دولة شرعية حسب اعتقادهم، فبدأت فكرة القول بنقل وظائف المهدي تداعب أفكار المتأخرین؛ فهذا الخميني يقول: (قد مر على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام، وقد تمرأ ألف السنين قبل أن تقتضي المصلحة قيود الإمام المنتظر في طول هذه المدة المديدة، فهل تبقى أحكام الإسلام معطلة يعمل الناس من خلالها ما يشاؤون؟ لا يلزم من ذلك الهرج والمرج؟ القوانين التي صدّع بهانبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وجهد في نشرها، وبيانها وتنفيذها طيلة ثلاثة وعشرين عاماً، هل كان كل ذلك لمدة محدودة؟ هل حدد الله عمر الشريعة بما تعيّن عاماً مثلاً؟ الذهاب إلى هذا الرأي أسوأ في نظري من الاعتقاد بأن الإسلام منسوخ).

ثم يقول: (إذن فإن كل من يتظاهر بالرأي القائل بعدم ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية فهو ينكر ضرورة تنفيذ أحكام الإسلام، ويدعو إلى تعطيلها وتجميدها، وهو ينكر بالتالي شمول وخلود الدين الإسلامي الحنيف)[26].

ويقول: (وبالرغم من عدم وجود نص على شخص من ينوب عن الإمام حال غيبته، إلا أن خصائص الحاكم الشرعي موجودة في معظم فقهائنا في هذا العصر؛ فإذا أجمعوا أمرهم كان في ميسورهم إيجاد وتكوين حكومة عادلة منقطعة النظير)[27].

وإذا كانت حكومة الآيات والفقهاء لا مثيل لها في العدل كما يقول فما حاجتهم بخروج المنتظر إذا؟

وهو يرى أن ولية الفقيه الشيعي كولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول: (فالله جعل الرسول ولیاً للمؤمنین جمیعاً ومن بعده کان الإمام ولیاً، ومعنى ولایتهما أن أوامرهم الشرعیة نافذة في الجميع) ثم يقول: نفس هذه الولایة والحاکمية موجودة لدى الفقیه، بفارق واحد هو أن ولایة الفقیه على الفقهاء الآخرين لا تكون بحیث یستطيع عزلهم أو نصبهم؛ لأن الفقهاء في الولایة متساوون من ناحیة الأهلیة)[28].

(وإن معظم فقهائنا في هذا العصر توفر فيهم الخصائص التي تؤهلهم للنيابة عن الإمام المعصوم)[29].

هذا الانقلاب یعتبر نسخاً لكل ما انبني عليه دین الإمامیة، أو على حد قول من قال: إن الخمینی أخرج (المهیدی المنتظر) عند الرواصل[30]

من الانتظار إلى الثوار:

والفکر السياسي الإمامی هو فکر ثوری بطبعیته، وانتقامی من نشأته إلى منتها، وكما یقول قائلهم. الشیعیة هم التیار الثوری على مدار تاريخ المسلمين، لدیهم عقدة ذنب متصلة منذ مقتل الحسین بن علی بن أبي طالب في کربلاء على يد زبانیه یزید بن معاویة ثانی حکام الدولة الأمویة، عقدة سببها أنهم تخلوا عن الحسین الذي خرج یطلب الإمارة، وخذلوه؛ بل وسلمه نفر منهم إلى عدوه اللدود، لیمثّل بجثته ویسی أهله وذویه، وقد أتاح لهم الزمن (عدواً جديداً)!! یعوضون في جهاده وقتاله والثار منه ما اقترفوه في کربلاء؛ وبالفعل هم یقاتلون بكل الهموم والآلام والأحزان والاضطهاد الذي جثم على صدورهم طیلة ما یقرب من 1300 سنة، یجاهدون ضده بعقیدة متماسکة وشعار حاد (کل يوم عاشوراء وكل أرض کربلاء)، وإذا لم تکن الدماء قد جرت في کربلاء دفاعاً عن الحسین، فلتسلل أنهاراً یغسلون بها العار عن الأرض ویستعيضون بها عن الشرف الضائع [31].

وتمت المبالغة في تحويل نظریة: (الانتظار) السلبية إلى نظریة ثوریة، كما قال عبد الہادی الفضلي: إن الذي یقاد من الروایات في هذا المجال هو أن المراد من الانتظار هو وجوب التمهید والتقطئة بظهور الإمام المنتظر. وإن التوطئة لظهور الإمام المنتظر تكون بالعمل السياسي عن طريق إثارة الوعي السياسي والقيام بالثورة المسلحة!![32].

وإن كانت الدولة النبویة في المدينة التي أقامها المصطفیٰ صلی الله عليه وسلم هي أمنیة الأمانی التي یُسعي لتحقیقها باعتبارها أنموذجاً ومثلاً یُقتفي أثره ویُرجی الوصول إلى صورته فإن هذا النموذج لم يكن هو المثال والهدف الذي یسعي إليه الإمامیة؛ بل كان مثالهم دائماً وحتى یظهر مهیدیهم المنتظر هذه (المصیبة) الکربلائیة التي هي دائماً ماثلة أمامهم.

(فالأمة الحسینیة أمة متصلة قوام اتصالها بـ (المصائب) المتعاقبة عليها، وموافقات الثورة الکربلائیة التي لم تنقطع، هناك تدرك تماماً أنك تعرفهم فرداً فرداً منذ آلاف السنین، قاتلت معهم وقاتلوا معك، واستشهدتم سوياً في کربلاء، هناك تدرك تماماً أن المهدی ليس بعيداً وأنه في مكان ما على الجبهة)[33].

وإذا غدا استمرار الثورة ودومها من بعد حدوثها إنجاز الثورة الأعظم أوجب تجديد الإعجاز کل يوم، والقيام بالثورة من غير انقطاع ولا تلکؤ، ولا یرتب تجديد الإعجاز حين تتصل الثورة الإسلامية الخمینیة بين کربلاء وبين ظهور المهدی، إلا إظهار الدلائل على قیام الثورة، وحفظ معناها، والحوّل بين هذا المعنى وبين الاضمحلال والضعف. ولا يتم ذلك إلا بالإقامة على الحرب وفي الحرب. وینبغي لهذه الحرب أن تكون الحرب الأخيرة، ولو طالت قرونًا؛ لأنها تؤذن بتجدد العالم کله، وبطيء صفحه الزمان[34].

فلم تکن الحرب بضواحي البصرة وعلى ساحل شط العرب إلا مقدمة حروب كثيرة أوكلت إليها القيادات الخمینیة الشابة التمهید لـ (فَرَجَ) المهدی صاحب الزمان من غیبته الكبیری، ولبسطه رایة العدل على (الأرض) کلها، وتویریثه ملک الأرض للمستضعفين[35].

وهذا المفهوم الثوری المستمر کان له في الحركة السياسية الشیعیة اللبنانيّة نصیب وافر؛ فقد ترجمه خطباء الحركة

الخمينية بلبنان وينقلونه إلى (اللبنانية)، أو الكلام السياسي اللبناني، بعبارة (الحالة الجهادية) أو (الثورية أو الإسلامية)، وهي تعني الخروج من كل أشكال الإدارة التي تمت بصلة إلى الدولة ومؤسساتها وقوانينها عامة، وإلى كيانها الحقوقي خاصه. لذا يحرض أبناء (حزب الله) على استمرار التشرذم والتجاذب والتخطي حرصهم على حقوق عيونهم. ويرفعون هذه الحال إلى مرتبة المثال.

ويخاطب محمد حسين فضل الله جمهور المسلمين في مسجد بلدة النبي عثمان قائلاً: علينا أن نخطط للحاضر والمستقبل؛ لنكون مجتمع حرب!! ويضيف الخطيب: إن الحرب هذه (مفروضة)، شأن كل الحروب التي يحل خوضها للإماميين، ولا يحل لهم خوض غيرها[36]، وال الحرب (المفروضة) هي النظير الإيراني لحرب التطويق السو. ياتية. فكل ما يوقف توسيع أصحاب مجتمع الحرب عدوانٌ عليهم.

بين بداية القرن ونهايته:

كانت الحالة الدينية السياسية الشيعية في بداية هذا القرن الميلادي حالة منكمشة إلى حد ما، وكان هناك تهميش واضح للشيعة باعتبارهم (طائفة)، وكان ذلك التهميش الذي عاناه (جبل عامل) والشيعة عامة خلال فترة الانتداب على لبنان، وفترة بناء الدولة والاستقلال حال دون احتلال م الواقع في الدولة تسمح أو تدفع بالمشاركة في سباق ادعاء رموز تاريخية مؤسسة لها من الطائفة الشيعية[37].

وعلى مستوى الحالة الدينية، فقد ضعف دور العلماء وعزف الشيعة اللبنانيون عن العمامة أي طلب العلم الشيعي الديني وانزوى المسجد، وقد شهد أحدهم على هذا الواقع فقال: فهذه القرى العاملية لا تذكر اسم الله تعالى في ليل ولا نهار، برغم سخاء المهاجرين على بناء المساجد وكان يوجد وقتها 1920 م ما يزيد على الأربعين مسجد بين مسجد كبير وصغير [38].

وتزامنت هذه الحالة الرثة والهامشية مع تغيرات عالمية ضخمة، فكان سقوط الخلافة العثمانية، وبدايات الدعوة إلى القومية العربية عقب الدعوة الطورانية التركية، وال الحرب العالمية الأولى، ثم كانت الدولة البهلوية (العلمانية) وكانت هذه الظروف وغيرها مجتمعة أدت إلى أن كانت بدايات النهضة الحديثة للشيعة الإمامية التي انتهت في 1979 م، بقيام الجمهورية الإسلامية ورغبة في قيام جمهوريات أخرى على غرار المثال الأم.

وبين هذه النهضة في بداية القرن وقيام الدولة وسعيها إلى إنشاء دول أخرى، خاصة في لبنان كانت هناك جهود كبيرة لذلك، وكان (حزب الله) مرحلة من مراحل ينبغي أن نقف عليها.

أما كيف كانت بدايات النهضة السياسية والدينية الشيعية اللبنانية على يد موسى الصدر وفضل الله وغيرهما؛ وكيف أصبحت (الطائفة) الشيعية رقمًا مهمًا في الحسابات اللبنانية؛ وكيف صنعوا (قوافل الانتحاريين)؛ فهذا وغيره موضوع حديثنا في الحلقة القادمة إن شاء الله.

(1) وضاح شارة دولة حزب الله، ص: 339 دار النهار، بيروت، ط/1/1996 م.

(2) فهمي هويدى، جريدة الأهرام 30/3/1999 م.

(3) د حلمي القاعود جريدة الشعب، 9/3/1999 م.

(4) مجدى أحمد حسين، وانتصرت المقاومة، ص 7، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، ط/1966/1 م.

(5) د محمد مورو، الجهاد في سبيل الله، حزب الله نموذجًا، ص 62، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، ط/1966/1 م.

(6) انظر: د فاطمة بدوي، الحرب، المجتمع والمعرفة، الحرب الأهلية وتغير البنى الاجتماعية والعلقانية في لبنان، ص 99 118، دار الطليعة، بيروت، ط/1994/1 م وانظر: أبیر منصور، الانقلاب على الطائف، ص 51 57، دار الجديد، بيروت، ط/1993/1 م.

- (7) وضاح شراره، دولة حزب الله، ص 31، 32، وانظر: أحمد الكاتب، تطور الفكر السياسي الشيعي، ص 378، 385، دار الجديد، بيروت، ط/1/1998م، وانظر: تجربة الإسلام السياسي، أوليفيه روا، ترجمة نصیر مروة، ص: 162، دار الساقی، ط/1996/2م.
- (8) انظر: تاريخ الصوفيين وحضارتهم، بدیع جمیع احمد الخولی، ص 55، دار الرائد العربي، وأحمد الكاتب، مصدر سابق، ص 378، عبد الله الغریب، وجاء دور المجموع، ط/1408/هـ.
- (9) انظر: محمد العبدة، مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية، ص 77، 125، وانظر: دوجیه کوثرانی، المسألة الثقافية في لبنان، الخطاب السياسي والتاريخ، ص 83، 88، منشورات بحسون الثقافية ط/1404/1هـ.
- (10) أحمد الكاتب، مصدر سابق، ص 379.
- (11) مجلة المقاومة، العدد 40، ص 29، وهي مجلة شهرية تصدر في مصر، تعنی بشؤون وأخبار حزب الله، يصدرها د رفعت سید احمد مرکز یافا للدراسات والأبحاث.
- (12) جريدة النهار اللبنانيّة 1986/12/11م.
- (13) جريدة النهار 1987/3/5م.
- (14) حلقات الإسلام والكونجرس، الحلقة 38، ص: 46 د أحمد إبراهيم خضر، نشرت في مجلة المجتمع الكويتيّة، العدد 955.
- (15) مجلة المقاومة، العدد 27، ص 15، 16.
- (16) جريدة الشرق الأوسط، عدد (7482) 1420/2/9هـ 1999م.
- (17) جريدة الحياة، العدد (13252)، 20/6/1999هـ.
- (18) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي ج/122، 52.
- (19) أحمد الكاتب، تطور الفكر السياسي الشيعي، ص 271، 272.
- (20) المصدر السابق، ص 276، وراجع د موسى الموسوي، الشيعة والتصحیح، ص: 9، 50، 51، 61، 65، 66هـ.
- (21) انظر: أحمد الكاتب، مصدر سابق، ص 292، 299.
- (22) تحریر الوسیلة للخمينی، ج/482، 1.
- (23) انظر: عبد المنعم شفیق، ویل للغرب (مغزی التقارب ایرانی مع الغرب والعرب)، ص: 108- 131، مکتب الطیب، القاهرة، ط/20/1420هـ.
- (24) انظر: د ناصر عبد الله الفقاری، أصول مذهب الشیعه، ج/2، 847، 892، 897، ط/1414هـ.
- (25) انظر: د ناصر عبد الله الفقاری، أصول مذهب الشیعه، ج/2، 847، 892، 897، ط/1414هـ.
- (*) شهدت الساحة الشيعية اللبنانيّة أنماطاً من هذا النسخ، فقد نسخت حركة أمل، حركة المحرومين، ثم جاءت أمل الإسلامية لتنسخ بشكل جزئي حركة أمل، ثم جاء حزب الله لينسخ ما سبق، كل ذلك في فترة زمنية لا تجاوز عشر سنوات، وهذا ما سرّاه في الحلقة القادمة إن شاء الله.
- (26) الحكومة الإسلامية، ص 26، 27.
- (27) المصدر السابق، ص 48، 49.
- (28) المصدر السابق، ص 51.
- (29) المصدر السابق، ص 113.
- (30) د ناصر الفقاری، أصول مذهب الشیعه، ج/3، ص 1169.
- (31) مجلة المقاومة، العدد (35)، ص 16.
- (32) في انتظار الأئمّا/ص: 57، 67.
- (33) دولة حزب الله، ص 287.
- (34) المصدر السابق، ص 276.
- (35) المصدر السابق، ص 231.
- (36) جريدة النهار، 14/5/1986م.
- (37) انظر: دوجیه کوثرانی، مصدر سابق، ص 79.
- (38) دولة حزب الله، ص 177.
- (**) حدثت بعض الأخطاء المطبعية في هذه المقالة بالطبعة السعودية؛ لذلك تم إعادة نشرها في العدد 143 بذات الطبعة، بينما خلت بقية الطبعات من الخطأ، لذا لزم التنويه.

